القوافل التجارية الإفريقية خلال القرن التاسع عشر الميلادي: قوافل منطقة وادي نون نموذجا

The African trade caravans during the nineteenth century AD: Wadi Noun region Caravans as a model

د. البشير البونوحي: أستاذ مكون بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين جهة كلميم واد نون – المغرب.

د. عبد اللطيف أمزيغ: باحث في التاريخ الجهوي للجنوب المغربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

Dr. El Bachir El Bounouhi: Doctor at the Regional Center for Professions of Education and Training, Guelmim-Oued Noun, Morocco, e-mail: eelbounouhi@gmail.com

Dr. Abdellatif Amazigh: Researcher in Regional History of the South of Morocco, Faculty of Letters and Human Sciences, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco, email: Amazigh@gmail10abdella

ملخص:

اضطلعت قافلة منطقة وادي نون بدور مهم كوسيط وصلة وصل بين الشمال والجنوب، فوقوع هذا المجال الصحراوي وسط المغرب، جعله منفذا تجاريا للبضائع الإفريقية الآتية من جنوب الصحراء، والمتجهة نحو شمال المغرب وأوروبا والعكس صحيح، إلا أن ذلك لا يعني عدم تعرض القوافل التجارية لمشاكل تحول دون نجاح مهمتها، التي تتطلب التمكن من منهجية عمل محكمة ومضبوطة، تحقق أرباح ونتائج إيجابية، سواء على المستوى الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي.

الكلمات المفتاحية: وادي نون، التجارة الصحراوية، القوافل التجارية.

Abstract:

The Oued Noun trade caravans played an important role as a mediator and a link between the North and the South, but this did not mean that commercial convoys were spared from problems that obstructed their success, requiring the mastery of a tight and controlled work methodology, that achieves profits and positive results both at the, social, economic or cultural level.

Keywords: Wadi Noun, Saharan trade, Caravans

المقدمة:

تعتبر القوافل التجارية تلك القطعان من الإبل الحاملة لمختلف البضائع والسلع، يقودها العديد من الناس أو بالأحرى التجار أو الأشخاص المتخصصين أو الممتهنين للفعل التجاري، والذين يكونون في خدمة المصالح الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لأنفسهم، أو لعدة مناطق أو لمجموعة من العائلات التجارية الهامة، ويمكن أن يقتصر عدد أفرادها على شخصين أو ثلاثة مع عدد يسير من الجمال والحمير.

كما أن هذه القوافل خلال القرن التاسع عشر الميلادي كانت صلة ربط بين إفريقيا الشمالية ونظيرتها الجنوبية[1]، إلى حين قدوم الإستعمار الأوروبي الذي غير الكثير من الأمور داخل البنية الاقتصادية والاجتماعية[2] والسياسية للمجال، وغالبا ما كانت تعترضها العديد من المشاكل سواء عند اتجاهها نحو جنوب منطقة وادي نون[3] أو شمالها[4]، طبيعية كانت أو بشرية، وهو ما كان يقتضي وضع استراتيجية محكمة، تمكن أرباب الإبل وتجار السلع والبضائع من تحقيق النجاح

---

[1]- عُرف في تاريخ ضفتي الصحراء أن القافلة لم يقتصر دورها على العمل التجاري فقط، بل مزجته بالدور الاجتماعي والثقافي أيضا، حيث عمد العديد من مغاربة وادي نون مثلا إلى الإستقرار الإستثنائي أو النهائي بأهم المراكز التجارية الإفريقية، كمركز تنبكتو الذي إحتضن خلال منتصف القرن التاسع عشر الميلادي نسبة مهمة منهم، حيث استفادوا من الطريق التجارية التي كانت تربط تنبكتو بوادي نون مرورا من أروان ومركز تويني.

[2] اضطلع الإستعمار الفرنسي والإسباني بدور كبير في تقويض البنية السوسيو - اقتصادية للمجال الصحراوي، حيث بدأت السيطرة التجارية للمغاربة بالمراكز التجارية سواء بوادي نون أو غيرها تتقلص شيئا فشيئا، وذلك بعد أن عمد الاستعمار إلى مراقبة القبائل الصحراوية وزرع الفتنة فيما بينها، إلى جانب تجميع المنتوج الصحراوي وتوجيهه نحو التصدير إلى الخارج، وذلك بإلغاء تجارة الرقيق والذهب التي كانت تدر على أصحابها الربح الوافر، بالإضافة إلى انتشار المحلات التجارية الأوروبية التي أصبحت تستحوذ على كل السلع المستوردة والمصدرة، مما أدى بالعديد من الفئات الاجتماعية المحلية إلى التوقف النهائي عن العمل التجاري القوافلي، أو الهجرة والبحث عن منافذ أخرى للعيش.

[3] بخصوص موقع هذه المنطقة الصحراوية المغربية (منطقة وادي نون)، نجد عدة تحديدات جغرافية تختلف باختلاف الزمن التاريخي، واختلاف ما ورد في الروايات الشفهية والكتابات العلمية التي تناولت هذا المفهوم الجغرافي. ورغم ذلك فإننا سنقتصر على أهم تحديد متداول في منطقة ودي نون من خلال ما مفاده:

"وادي نون هو ما يقع من سفوح درن (جبال الأطلس الكبير التي تمتد من غرب مدينة أكادير على المحيط الأطلسي في اتجاه الشمال الشرقي) الجنوبية إلى حدود الصحراء من وادي نون وقبائله من تكنة والركيبات وما إليها إلى حدود منطقة طاطا شرقا ومنطقة سكتانة (سكتانة هي قبيلة تنتمي لإتحادية قبائل مصمودة الأمازيغية بالأطلس الكبير)".

للمزيد من المعطيات حول إشكالية التحديد الجغرافي لوادي نون، راجع:

- ✓ عبد اللطيف أمزيغ، **مقاربة معرفية ومنهجية لدراسة وحفظ تاريخ وادي نون**، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، مجلة علمية محكمة، تصدر عن مؤسسة برابدو للخدمات التعليمية، السودان، المجلد 03، العدد 02، فبراير 2022، من ص386 إلى ص389.

[4] عُرف عن القافلة الوادنونية أنها كانت تنقل المواد التجارية إلى مرسى الصويرة، وتستورد منه كذلك أهم المنتجات القادمة من أوروبا، لتقوم بتوزيعها على قبائل وادي نون وجنوبها وصولا إلى أجزاء مهمة من السودان الغربي.

التجاري بين مختلف المراكز، التي احتضنت أنشطتهم وضمنت لهم الاستمرار في امتهان فعل التجارة خلال هذه المرحلة الهامة من تاريخ وادي نون وإفريقيا.

إشكالية الدراسة:

بناء عليه، فإشكالية هذا المقال العلمي، قد تم دراستها بالتركيز على نقطتين أساسيتين تتضمنان معطيات تاريخية هامة، أسهمت في التعريف بالقافلة الوادنونية وظروف نجاحها، رغم كل الصعوبات التي كانت تعترضها خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وتتجسد هاتين النقطتين فيما يلي:

- **تجارة القوافل بوادي نون والظروف المتحكمة فيها.**
- **التنظيم المحكم، سر نجاح تجارة القوافل بين منطقة وادي نون وأهم المراكز التجارية الإفريقية.**

وبغية الإجابة على هذه الإشكالية، فقد تم الوقوف أولا على المفهوم العام للقافلة التجارية، باعتباره مفتاح فهم هذا الموضوع التاريخي، وذلك قبل الانتقال إلى الاطلاع على بعض الدراسات العلمية التي تناولت المنطقة من خلال التجارة القوافلية؛ من قبيل الوثائق التاريخية، والروايات الشفهية المحلية، وكتابات عربية وأخرى أجنبية أغنت هذه الدراسة المتواضعة، التي اهتمت أيضا بظروف وصعوبات امتهان تجارة القوافل بين المراكز الإفريقية، والإجراءات التي اتخذت من طرف المسؤولين عنها، لضمان نجاحها وعدم انقطاع أثرها في الزمان والمكان خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك قبل أن تنتهي الدراسة نفسها بخاتمة عبارة عن استنتاجات واستخلاصات تاريخية.

الهدف من الدراسة:

تظهر أهمية هذه الدراسة العلمية على المستوى التاريخي، في تناول إشكالية قافلة منطقة وادي نون ومحيطها القبلي الإفريقي إبان القرن التاسع عشر الميلادي، في محاولة لتتمين تاريخ مجال وادي نون بجنوبه (مراكز ذات صيت هام من قبيل تنبكتو وتودني وتشيت ...) وعلاقته بشماله (خاصة من خلال مركز إليغ والصويرة ومراكش ...)، حيث حاولت مؤسسة القافلة مسايرة الرأسمالية الأوروبية، وفي الوقت نفسه اضطلعت بدور هام على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، في سياق تحقيق التوازن الذي كان حتميا وجوده بين مكونات المحيط القبلي لعموم إفريقيا؛ ومن بينها مكونين أساسين للقافلة؛ هما الرحل والمستقرين خاصة التجار منهم، في إطار تبادل هام ومفروض للبضائع وتقاسم محكم للأدوار، بعيدا عن التناحر والتنافر الذي كان بالإمكان

أن يسهم في تقويض البنيات، ونشر الفوضى والصراعات في مجالات ما كان يعرف جزافا بمجالات "السيبة".

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي في تقصي أحداث وظروف هذا الموضوع، وذلك من خلال بعض الوثائق التاريخية، باعتبارها المادة الأولية والأساسية للتعريف وتفسير وتحليل وتركيب وتأويل أي فعل أو ظاهرة تاريخية، بالإضافة إلى استثمار ما جادت به بعض الروايات الشفهية الوادنونية، وبعض الدراسات التاريخية الأخرى؛ سواء الدراسات العربية أو الدراسات الأجنبية، رغم كون هذه الأخيرة كانت تخدم توجهات الأوروبيين الاستعماريين، الذين كانوا يهدفون إلى امتلاك أكبر قدر ممكن من المستعمرات خاصة في القارة الإفريقية، خدمة لاستمرار ازدهار النظام الرأسمالي؛ الذي يفرض تصريف فائض الإنتاج، وتصريف فائض الأموال عن طريق الاستثمار بالمناطق المحتلة، وتصريف فائض السكان، وأخيرا جلب المواد الأولية اللازمة لمواصلة تطوير الصناعة والتجارة الأوروبية.

1) تجارة القوافل بوادي نون والظروف المتحكمة فيها:

من أبرز هذه القوافل نجد قوافل "آل بيروك" وقوافل منطقة "إليغ"، والتي كانت تجوب الصحراء رغم المشاكل التي كانت ترافقها، مما كان يفرض على قواد الأسرتين وغيرهما من أسر عموم الصحراء المغربية، ربط علاقات واتفاقات قبلية[1]، حيث تتولى كل قبيلة حماية التجار المارين عبر ترابها إلى حين وصولهم لتراب القبيلة الموالية مقابل إتاوة المرور، وذلك بالإعتماد على "الزطاط"، الذي اعتبر وجوده أمرا حتميا خاصة في المناطق غير الخاضعة للنفوذ المباشر للمخزن المغربي؛ فإذا مرت القافلة مثلا من تراب قبيلة "أولاد بوسبع" يحميها ويرافقها زطاطون سباعيون، ولا يتركونها أو يتخلون عن مسؤوليتهم تجاهها، إلا بعد أن يتقاضوا أجرتهم كاملة، وبعد أن تعبر مجال "أولاد دليم" يرافقها ويحرسها زطاطون دليميون، والأمر نفسه ينطبق على باقي المراكز إلى حين وصول القافلة إلى تنبكتو ومجمل مناطق السودان الغربي. وكل اعتداء عليها كان بمثابة إهانة وعار للقبيلة الحامية لا تتبرأ منه إلا بعد إزالته بشكل أو بآخر بمرور الأيام. وتزداد

[1] لقد كانت القبائل الصحراوية التي تمر منها القافلة أو من حدودها، تستفيد تجاريا وماديا عن طريق استخلاص واجبات وحقوق المرور، وهذا ما يعني أن اتفاقات أو معاهدات مُسبقة قد أُبرمت بين الأطراف في مجال ما كان يعرف بـ "مجال السيبة".

مهمة "الزطاط" إذا كان التاجر العابر يهوديا؛ نظرا لتمتعه بحماية المخزن[1]، أو بحماية الشيخ أو القبيلة[2] من جهة أولى، ومن جهة ثانية، إن أرباح وإتاوات المرور التي تفرض عليه كانت ذات قيمة أكثر من نظيرتها التي تفرض على التجار المسلمين، وبالتالي وجب ايصاله بأمان وإرجاعه بسلام، مع العلم أن التجار اليهود كانوا هم أرباب القوافل في الجنوب وأصحاب أو مكثرو الإبل.

منذ الوهلة الأولى، يدل هذا المعطى الأخير المرتبط بضرورة أداء واجبات زطاطة وحراسة قوافل اليهود والظروف المرافقة لها، على عدم تخصص ومرافقة تجار أهل الذمة للقافلة التجارية، وهذا ما تومئ إليه أغلب الروايات الشفهية التي استقيناها بالمجال قيد هذه الدراسة التاريخية، حيث يبقى التجار اليهود إما ينتظرون ذهاب القوافل محملة بسلعهم وبضائعهم التي تباع في الأسواق جنوبا من قبل من كلفوا للقيام بهذه المهمة (خاصة تجار آل بيروك)، وإما أنهم ينتظرون عودة قوافل أخرى بسلع مهمة قادمة من المراكز الإفريقية، يتاجرون فيها بوادي نون (أكليم العاصمة) أو يأخذونها في اتجاه الصويرة وغيرها، ويعود السبب في ذلك إلى التمييز الذي كان يطالهم بالمقارنة مع بقية الفئات الاجتماعية الأخرى، التي تفضل وتميل إلى التعامل فيما بينها، نظرا للقواسم المشتركة بينها خاصة على المستوى الديني والاثني. هذا كطرح أول، ولكن كطرح ثان من داخل الرواية الشفهية دائما، يُفسر عدم مرافقة اليهود لتجار هذه المنطقة المغربية وغيرها نحو المراكز الإفريقية جنوبا، بكونهم يعتبرون أنفسهم أسياد الأسواق، وأصحاب ومالكي بعض الجمال، بالإضافة إلى أنهم يؤدون الأجر كاملا للمكلفين بمرافقة القوافل وحمايتها، كما يؤدون أيضا الجزية وضرائب الأسواق من مكوس وغيرها، وبالتالي فهي أسباب وجيهة حسب اعتقادهم، تعفيهم

---

[1] راجع بخصوص حماية المخزن للتجار اليهود مثلا ما ورد في الوثيقة التاريخية المؤرخة بيوم 29 من شهر صفر عام 1262 هجرية، الموافق ليوم 26 فبراير سنة 1846 ميلادية، وهي عبارة عن رسالة من القائد المخزني محمد بومهدي إلى الحسين بن هاشم التازروالتي يحثه على ضرورة حماية التاجر اليهودي المسمى شهول Sahul، هذا الأخير الذي كلف من السلطان لجباية وجمع ديونه على المسلمين واليهود معا في كل من إليغ وإفران الأطلس الصغير، وجاء في الوثيقة ما نصه: "ماله اليوم صار من أموال السلطان نصره الله (...) فهو من تجار السلطان يجب حفظ حرمة السلطان في شؤونه ورعي الجانب الملكي زيادة على حرمة أهل الذمة التي أمر الرسول (ص) برعيها لهم" . راجع بهذا الشأن:

- Ennaji Mohamed et Pascon Paul, **Le Maghzen et le sous Al-Aqsa, la correspondance politique de la maison d'Iligh (1821-1894),** Ed. du C.N.R.S (centre national de la recherche scientifique), Paris et Toubkal, casablanca, Maroc, 1988, p. 43 - 44.

[2] لا يتمتع اليهودي في وادي نون وعموم الصحراء بنظام الحماية، إلا بعد تقديمه "للذبيحة" كمفهوم تاريخي، وهذا ما تؤكده أيضا وثائق تاريخية كثيرة (وثائق بحوزتنا) بمنطقة تكنة بالجنوب المغربي (راجع مثلا الوثيقة رقم 01، أنظر ملحق الوثائق التاريخية). وتجدر الإشارة إلى أن الحماية التي نالها التجار اليهود العابرين من وإلى المراكز الافريقية، مرتبطة بظروفهم التجارية أكثر من ارتباطها بظروفهم الاجتماعية والعرقية والدينية؛ حيث عانى أهل الذمة من الاضطهاد بسبب تفوقهم التجاري على غيرهم من التجار الأفارقة، الذين عملوا جاهدين على مواجهتهم وتفادي منافستهم بشتى الطرق التي من شأنها إبعاد اليهود عن المراكز التجارية ذات الصيت الهام.

من قلاقل السفر واختراق المسالك الصحراوية عكس غيرهم من التجار الآخرون. إلا أن هذا الطرح التاريخي يمكن نفيه إلى حد ما أو عدم تعميمه، إذ عمل بعض التجار اليهود على مرافقة بعض القوافل نحو مراكز إفريقيا الغربية، حاملين معهم بضائعهم وسلعهم خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث تفيد بعض التقارير المعتمدة من قبل الباحثة غزلان ليدن Ghislaine Lydon أن أحد اليهود المسمى "بيدجوخ"، قد سافر بمعية التجار من منطقة تكنة ومن منطقة أولاد أبي السبع إلى المجال الموريتاني الحالي، وذلك لتصدير أول شحنة من الشاي، والأمر نفسه ينطبق على التاجر اليهودي المسمى "يهودا"، الذي رافق ليوبولد باني Panet Leopold إلى مركز أدرار بموريتانيا[1].

ومما يزيد مهمة الزطاط صعوبة نجد انتماء مرافقي القافلة وممتهني التجارة أو وسطائها إلى عائلات وقبائل مختلفة ومتصارعة ومتنافسة، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا[2]، لكن يجمعهم هدف واحد يكمن في الوصول إلى مجال جلب وتصريف الإنتاج وتحقيق الربح، لذلك لا تجدهم في غالب الأحيان يجرؤون على خلخلة المسار والإتجاه الجغرافي الذي يقصدونه أو تقصده قوافلهم، وذلك خدمة لمصلحة التجارة الصحراوية وتنمية المجال الذي ينتمون إليه.

ومن أهم الصعاب التي تضاعف مسؤولية الدليل أو المرشد، التحاق قوافل جديدة بالقافلة الرئيسية[3]، إذ يتميز مسيرها بالبطء الشديد[4] خاصة خلال فترات سيادة مناخ غير ملائم،

---

[1] Lydon Ghislaine, **On Trans-Saharan Trails: Islamic Law, Trade Networks, and Cross-Cultural Exchange in Nineteenth-Century Western Africa,** Cambridge University Press, 2009, p.184.

[2] ينتمي مرافقو القافلة رغم الصراع الذي يجمع بينهم أحيانا، إما إلى العائلة نفسها، أو إلى القبيلة نفسها، أو إلى قبائل أخرى من كلا اللفين الموجودين بوادي نون (لف أيت الجمل ولف أيت عثمان)، وهو ما يتطلب من الدليل أو المرشد بمعية الخفراء الحد من القلاقل والحرص على سلامة القافلة.

[3] عُرف عن تاريخ القافلة الصحراوية أنها تتجمع شيئا فشيئا كل واحدة حسب مكان انطلاقها القبلي، لتشكل في منطقة معينة متفق عليها القافلة الكبرى التي تسمى محليا "بأكبار"، وهي قافلة تتكون من آلاف الجمال ومئات الرجال باختلاف دور كل واحد منهم، كما كانت هذه القافلة تسافر مرة واحدة في العام، وهو ما يعني اضطلاعها بدور تجاري كبير من خلال حجم المنتوجات والسلع التي كانت تبادلها مع العديد من المراكز الهامة. كما كانت الصحراء أيضا مجالا لتنقل القافلة الصغرى أو الصغيرة التي تتكون من شخصين إلى ثلاثة أشخاص، وفي بعض الأحيان من مئات الجمال، وتستطيع هذه القوافل أن تقطع المسافة نحو السودان الغربي في مدة قليلة حاملة معها البضائع والسلع، وهوما ساعد خاصة خلال فترات انعدام الأمن على حمايتها وتجاوز مختلف القلاقل المرتبطة بالخصوص بقطاع الطرق.

[4] كان عدد الإبل في قافلة وادي نون يصل إلى ما يزيد عن ألف جمل، لكن بقدوم المد الإمبريالي إلى المجال الصحراوي كما أشرنا إلى ذلك آنفا، تقلص عددها إلى حوالي المئة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وقد كانت القافلة التجارية تستغرق في رحلتها الرابطة بين منطقة وادي نون والصويرة ما بين خمس عشرة يوما و عشرين يوما، كما تستغرق بين وادي نون وتنبكتو قرابة شهرين اثنين أو أكثر أحيانا، ويخضع قطع هاتين المسافتين

بالإضافة إلى وجود الحيوانات المفترسة بالعديد من المسالك والطرق التجارية كالضباع والذئاب وغيرهما، إلى جانب وعورة التضاريس الجبلية واختلاف طبوغرافية الأودية، وصعوبة اختراق التلال الرملية والعواصف أو الزوابع المرافقة لها من فترة لأخرى، حيث تكون سببا رئيسيا في فقدان إبل القافلة ومرافقيها من الرجال والتجار.

إضافة إلى ما ذكر فالصعوبات التي تعاني منها القوافل التجارية، تنضاف إليها مشكلة الماء والتزود به، حيث شكل العنصر الأساس الذي تحكم بشكل واضح في رسم واختيار الطرق التجارية، لذلك نجد أن القوافل التجارية، غالبا ما كانت تسير بمحاذاة أو قرب الأماكن التي توفر بهذا العنصر الحيوي، كالهضاب والآبار والينابيع المائية.

ومن أهم القلاقل التي كانت تواجه القافلة التجارية، نجد قلة نقط الماء في بعض المحاور الطرقية سواء أثناء الاتجاه إلى شمال وادي نون خاصة نحو مركز الصويرة، أو أثناء الإتجاه نحو جنوبه مرورا بالمراكز الإفريقية ذات الصيت الاقتصادي الهام، ويصرح ليسار جون ميشيل Lessard, Jean-Michel في هذا الاطار بالقول: "ففي وقع بطيء ومنتظم لخطوات الجمال (...) فمنذ الصباح الباكر يبدأ السير حتى ترتفع الشمس في الأفق وترسل للأرض والهواء حرارة لا تحتمل، فيتم التوقف وإنزال الحمولة ثم تقيد الجمال وتفرغ البضائع وتضرب الخيام، للاستفادة من الظل (...) وفي الثالثة والنصف بعد الزوال، أي مع بداية انحدار الشمس، تعاود القافلة إنطلاقتها من جديد إلى حين نزول الظلام"[1]. ولتوضيح هذه الظروف بشكل أكثر دقة خاصة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، نشير إلى ما ورد في تقرير ممثل الولايات المتحدة الأمريكية بالمملكة المغربية من سنة 1879م إلى سنة 1881م من خلال ما نصه: "في سنة 1815م، تعرضت قافلة

وغيرهما لطبيعة الظروف المناخية وعوامل تغيير المسار، فقد يطول الوقت لو تم اختيار السفر مثلا عبر محور أقا وتندوف كما ورد عند فانسون مونطاي (راجع بهذا الشأن:

Monteil Vincent, **Notes sur les Tekna**, Editions larose, 11 rue victore _cousin 11, paris **(**Ve**)**,1948, p**.** 47.)

وذلك تبعا لاستطلاعات المخبرين الذين يُرسلون سواء قبل أو بعد انطلاق الرحلة، كما يمكن الأخذ بعين الاعتبار طبيعة الجمال المستعملة وحجم القافلة وأنواع الأنشطة التجارية التي تمارس في كل مركز من المراكز ذات الصيت. وفي هذا الإطار يشير محمد الناجي أن متوسط سرعة القافلة التجارية التي تعبر الصحراء، يتراوح بين خمس وثلاث وأربع كيلومتر في الساعة، فكانت المسافة تقطعها القافلة في سيرها العادي خلال اليوم الواحد تتراوح ما بين 35 و 40 كيلومترا. وأيا كانت الطريق التي تسلكها القافلة، فإن عبورها للصحراء كان يستغرق شهرين كاملين. راجع بهذا الشأن: الناجي محمد، **التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب (ما بين القرن 16 عشر والقرن 19 عشر)**، ترجمة عبد الرحيم حزَل، الناشر: جذور للنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2004م، ص24.

[1]Lessard, Jean-Michel, **Sijilmassa : la ville et ses relations commerciales au XIe siècle d'après el Bekri,** In Hesperis Tamuda, Vol. X - Fasc. 1.2, Rabat, 1969, p. 33 – 34.

متوجهة من تنبكتو إلى تافيلالت لرياح شديدة وساخنة سهلت تبخر المياه التي كانت تحملها القافلة، فاتجهت إلى مكان كانت عادة تجد فيه الماء فلم تعثر عليه، فمات من العطش كل أفراد القافلة وعددهم 3500 فرد بالإضافة إلى 2000 رأس من الجمال. ومآسي من هذا النوع تفسر وجود كمية من العظام البشرية وغيرها في الصحراء، وشدة الحرارة وقوة الرياح التي تدفع بالرمال إلى مشارف السهول (...)، فالرمال المدفوعة بالرياح تشبه الأمواج"[1].

2) التنظيم المحكم، سر نجاح تجارة القوافل بين منطقة وادي نون وأهم المراكز التجارية الإفريقية:

إن هاجس تجاوز إكراهات وصعوبات تجارة الصحراء، كان حاضرا في كل مكان وزمان، وذلك من خلال الاتفاق منذ الوهلة الأولى على استراتيجية تنظيم الرحلة، إما بشكل تناوبي بين المجموعات القبلية المرافقة للقافلة، أو بتكليف شخص ذي تجربة ودرايـة واسعة للقيام بهذه المهمة التجارية، وغالبا ما يكون "الدليل" أو ما يسمى بـ "المرشد"، فانطلاقا من لحظة خروج القافلة من وادي نون إلى حين عودتها، فإن نجاح التنظيم على أكمل وجه كان رهينا بالتجارب التي راكمها التجار والوسطاء وغيرهم بالصحراء منذ عدة قرون خلت. بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت القافلة أيضا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، تتبع قوانين مستمدة من القوانين والأعراف القبلية، ومن مختلف العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تربط بين مختلف أهالي ومداشر الصحراء عامة، خاصة تلك العلاقات المرتبطة بالزعماء الـذين يتمركزون بشكل مباشر على محاور ومسالك التجارة، وذلك في إطار إعادة تأكيد وتجديد روابط القبائل فيما بينها من حين لآخر، خاصة على المستوى السياسي لما له من أهمية قصوى في استتباب الأمن وتنمية المجال. إلى جانب ذلك استفادت القوافل أيضا من طبيعة الروابط المتينة التي كانت تربط التجار فيما بينهم، حيث كانوا يستقرون بمدن ومراكز في غاية الأهمية الاقتصادية والسياسية والثقافية، إذ تمثل دورهم في استقبال الـنـزايـل القوافلية وتيسير عملية التبادل التجاري معها، وحمايتها من السرقة والنصب والاحتيال وغير ذلك.

بناء على المعطيات أعلاه طبيعية كانت أم بشرية، فقد كان يتكلف بسير وتنظيم رحلة قافلة وادي نون، وتحديد أهم متطلباتها العناصر التالية:

---

[1] فيليكس ماتيوس F. Matheus، **ساحل إفريقيا الغربي، سوس، وادي نون، الصحراء**، تقرير ممثل الولايات المتحدة الأمريكية بالمملكة المغربية (1879م - 1881م)، ترجمة عبد الهادي التازي، مجلة البحث العلمي، العدد 31، 1980م، ص103.

أ. دليـل القافلة أو أمـنـيـر:

مهمة "الدليل" أو "أمـنـيـر" كما يسمى في معجم الصحراء، كانت مهمة صعبة، فاختيار الشخص الذي سيتولى هذه المسؤولية الجسيمة، يخضع لعدة شروط نذكر منها:

- ضرورة توفره على عنصر التجربة.
- انتماؤه للقبائل التي تعودت على التحرك في المجال الصحراوي بشكل مستمر.
- إلمامه الكافي ومعرفته الدقيقة بالطرق والمسالك الصحراوية التجارية.
- توفره على الشجاعة والشخصية التي تتطلبها ظروف تنظيم وانجاح عمل القافلة التجارية.

ومن ذلك يمكن القول أن "الدلـيـل" هو العارف بخبايا مسالك جنوب وادي نون وشماله، وغالبا ما كان ينتمي إلى قبائل الرحل التي كانت تجوب الصحراء في كل الاتجاهات الجغرافية، ليكون على دراية بأهم المناطق التي ستمر منها قافلته، موظفا قدرته وكفاءته وشجاعته وتجربته الترحالية[1]. وهي عوامل أساسية وجـب توفرها فيه ليضيفها إلى تجارب أخرى راكمها من خلال ايفاده بمعية رحلات قوافلية سابقة. وقد أشار الولاتي إلى "الدليل" أو "أمـنـيـر" خلال رحلته في اتجاة منطقة وادي نون، وذلك بالقول: "فترافقنا مع رجل من الركيبات له معرفة تامة بالطريق وتوجهنا قاصدين وادي نون منتصف شوال من العام الثاني عشر بعد ثلاثمائة وألف"[2].

وقد كان "الـدلـيـل" على سبيل المثال، عارفا بجميع أنواع أعشاب الصحراء من خلال شمها وتذوقها أحيانا، وهي ميزة يجب أن تتوفر فيه لسبب واحد، كون هذه الموارد الطبيعية منها ما يصلح ككلأ للقطعان ومنها ما يفتك بها. كما وجب عليه علاج بعض الأمراض ولدغات الأفاعي والعقارب ...، وهذا ما يبين حجم المسؤولية التي يتحملها بغض النظر عن حفظه ومعرفته بالمحاور الطرقية باستعمال النجوم أو غيرها، ومعرفة طبيعتها ومؤهلاتها الطبيعية من وجود آبار ومراع، وتنبؤ بالعواصف الرملية والاضطرابات الجوية. بالإضافة إلى ضرورة قدرته على مجابهة قطاع الطرق والتحايل عليهم وإقناعهم بشتى الطرق، منها المادية وغير المادية لحفظ أمن وحمولة القافلة،

---

(1) تساءلنا عن السبب الذي جعل أغلب المصادر والمراجع التاريخية التي اطلعنا عليها تغفل مسألة انتماء الدليل إلى فئة الرحل أكثر من انتمائه إلى فئة المستقرين، وقد استقينا هذه المعلومة الهامة من الرواية الشفهية للشيخ الحاج بـريـد الـلـيـل الـبـشـيـر، من كبار الأعيان بمنطقة أكلميم ووادي نون عامة، ومن أبرز شيوخ قبيلة أزوافيط، كما كان قائدا بجيش تحرير الجنوب المغربي (قائد المئة)، عرف أيضا بامتهان التجارة، حيث زار وتاجر في كل من باماكو وتنبكتو والنيجر والجزائر وغيرها. (تاريخ المقابلة الشفهية: 2014/06/20، مدينة أكلميم جنوب المغرب).

(2) الـولاتي، محمد يحيى بن محمد المختار، **الرحلة الحجازية**، تخريج وتعليق الدكتور محمد حجي، نشر دار الغرب الاسلامي، تونس، الطبعة الثانية، 2009م، ص87.

وكذا قدرته أيضا على مفاوضة بعض أسياد المراكز الاقتصادية والقبائل الأخرى منها قبائل الرحل[1]، ومعرفة حدودها الجغرافية وتحركها في الزمان والمكان، والإلمام بشخصيتها السياسية المتمثلة في شيوخها وقوادها كل حسب نفوذه وسلوكه الاجتماعي والسياسي بداخل المجال الصحراوي، ليعلم أدب وحسن التصرف مع غيره، أثناء ملاقاته إياهم واحتكاكه بهم.

والمعروف كذلك، أن من عادة "الدليل" أو "مرشد" القافلة اللجوء أحيانا إلى فكرة "العائلة أو الأسرة الموسعة" ذات رب أسرة واحد؛ حيث يعمد إلى الزواج في أكثر من مركز صحراوي، وهو ما يسمح له بربط علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية مع رؤسائها وشيوخها، وبالتالي حفظ أمن وسير قافلته في كل زمان ومكان، لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن أية هفوة منه، يمكن أن تلحق ضررا كيفما كان نوعه أو حجمه بالرحلة، فهو مسؤول عنها وستكلفه أمام القبيلة صاحبة القافلة، دفع قيمة الخسائر مادية كانت أو بشرية. ولكن هذا لا يعني أنه لا يتلقى مساعدة متنوعة بين الفينة والأخرى من مرافقيه ومساعديه، لأن ذلك يعتبر جزءا من مهامهم ومسؤوليتهم أيضا، وكمثال على ذلك، استعانته **"بالمنادي"** الذي يتكلف بتوزيع أوامره المتجلية في العديد من الوظائف[2] على كل الأفراد والمجموعات المرافقة له كل حسب تخصصه أو مهامه.

وفي تاريخ الصحراء الافريقية عامة والصحراء المغربية خاصة، اعتبرت مسؤولية "الدليل" وجسامتها بمثابة مهنة يتقاضى عنها أجرة ومقابلا مهما جدا، فقد كانت عبارة عن ربح مادي كبير يختلف من قافلة إلى أخرى ومن أسرة تجارية إلى أخرى، فأسرة "آل بيروك" بوادي نون خلال القرن التاسع عشر الميلادي مثلا، كانت من أهم الأسر التاريخية بالمنطقة، فالمال والهدايا والقيمة التي كانت تمنحها للدليل أكثر من نظيرتها لدى الأسر التجارية الأخرى بالمنطقة[3]، عرفانا منها وردا للجميل، واعترافا بمهنته ودوره الهام في تنمية وتنشيط القطاع التجاري. والأمر نفسه ينطبق على العديد من الأسر التاريخية بالمحيط القبلي لوادي نون، خاصة أسرة آل بودميعة التي اخترقت الصحراء وصولا إلى السودان مستفيدة من علاقاتها وظروفها التاريخية لما قبل القرن 19م، سواء على المستوى الديني الثقافي، أو على المستوى الاجتماعي والتجاري.

---

(1) يعتمد "الدليل" أثناء قيادة وإرشاد القافلة على بعض قبائل الرحل لمعرفتها التامة بالمسالك الصحراوية، حيث كان يستعين بأحد أهم عناصرها من حيث حنكته وتجربته لمساعدته طيلة الرحلة منذ انطلاقها إلى حين وصولها ورجوعها، إلا أن ذلك يكون في حالة عدم انتمائه إلى فئة الرحل ذات العلاقات الكثيفة مع مجمل المحيط القبلي الإفريقي.

(2) الأمر بالتوقف كلما اقتضت الضرورة، وكذا الأمر بتغيير المسار، أو الإخبار بقرب الوصول إلى الآبار أو المراكز التي ستنال فيها القافلة راحة أو ستجعلها مبيتا أو ستتاجر من خلالها إن أمكنها ذلك.

(3) رواية شفهية، علي سالم ولد بيروك من عائلة "آل بيروك" التاريخية بمنطقة وادي نون، بتاريخ 2014/06/14، بمدينة أكليم.

ب. الحـراس أو الخفـراء:

ويسمون محليا في الصحراء باسم آخر هو "**إينـمـيـرن**"، وهم الذين يُـدافعون عن القافلة خاصة في الفترات التي انعدم فيها الأمن وانتشرت القلاقل بين القبائل، إذ يتم اختيارهم من بين أجـود المقاتلين بوادي نون لمرافقة القافلة، وكانوا يعملون تحت إمرة وسيادة "الـدلـيـل"، حيث كانوا ينفذون أوامـره ويطبقون نظامه المحكم الهادف إلى ايصال القافلة وارجاعها بأمن وسلام، وفي هذا الإطار فقد كانت القافلة التجارية للشيخ بيروك بن عبد الله بن سالم الوادنوني، والمتجهة نحو منطقة أدرار تحت حماية العديد الخفراء أو المسلحين، الذين بلغ عددهم خمسة وخمسون مسلحا حسب ما أورده فيدرب[1] Faitherbe.

والأمر نفسه يرتبط بقافلة "ولـد بيروك بن عبد الله بن سالم" إبان القرن التاسع عشر الميلادي، حيث كان الحراس يرافقون قافلة الأسـرة والقبيلة من مركز أكلميم إلى حين وصـولها آمنة إلى شنقيط أو إلى أدرار أو إلى تنبكتو أو إلى غيرها، ومرافقتها كذلك في رحلة عودتها محملة بالعديد من السلع غير المتوفرة في هذه المنطقة وإعادة المتاجرة فيها.

وكان هؤلاء الخفراء طيلة الرحلة التجارية حريصين على عدم تشتيت القافلة، سواء أثناء الظروف الطبيعية الصعبة المتمثلة على وجه الخصوص في هبوب العواصف الرملية، وارتفاع درجة حرارة بعض الأيام والفصول، أو أثناء الظروف السياسية المتمثلة إما في الصراعات التي كانت تنشب بين القبائل حول مختلف المصالح التي يوفرها المجال، أو بسبب اعتراض طريق القافلة من طرف قطاع الطرق الذين تعتبر هوياتهم مجهولة، مما كان يحتم على هؤلاء الخفراء التمتع ببنية جسمانية قوية وحنكة قتالية مهمة تساعدهم على المجابهة وتأمين القافلة.

ت. العـدول والمـوثـقـون:

عُـرفت وادي نون بإنجابها العديد من العدول والموثقين الثقات، منهم المستقرون بالمنطقة لا ينتقلون إلى مجالات جغرافية أخرى، إلا في حالات الضرورة سواء الدينية أو الاجتماعية أو الثقافية أو غيرها، ومنهم الرحل (العدول والموثقون الرحل) الذين كانوا يرافقون القوافل وأربابها، قصد تسجيل كل الأحداث والمعاملات التجارية من بيع وشراء، وتحديد للقيم وأثمنة البضائع والسلع وغيرها من الأمور التجارية طيلة مدة رحلة القافلة، هذه الأخيرة التي كانت خلال القرن التاسع

[1] Faidherbe, Colonel, **Renseignements géographiques sur la partie du sahara comprise entre L'Oued Noun et le Soudan**, Revue Maritime et coloniale, T : 01, Janvier et Février 1861, p. 142.

عشر الميلادي في دينامية تجارية مهمة على طول كل النقط والمراكز التي تمر منها، وذلك حسب مختلف الظروف التي تفرض نفسها من حين إلى آخر.

بالإضافة إلى ذلك، فقد أسهم العديد من الموثقين والعدول خلال القرن التاسع عشر الميلادي، في تنشيط مختلف المعاملات التجارية لوادي نون ومحيطه القبلي، وكمثال على ذلك أسرة آل بيروك التي عرفت نشاطا تجاريا، ألزمها بربط علاقات كثيرة ومهمة مع مختلف العدول والموثقين باختلاف أصلهم القبلي أو الجغرافي؛ منهم التجاكنتيون والركراكيون والسوسيون والصويرين والأكلميميون وغيرهم، حيث كانوا من خيرة أهل العلم والتقوى، ومعروفون أيضا بضبط وتقنين العمليات التجارية، وهو ما أسهم في نيلهم اهتمام وثقة التجار والوسطاء في عموم الصحرء وشمالها، حيث أغدقوا عليهم بالهدايا والأجور المهمة مقابل كل عمل تجاري قاموا بتوثيق وضبط أموره وظروفه.

وفي هذا الاطار، فقد كانت قافلة وادي نون برئاسة "آل بيروك" أو غيرهم من أهالي وتجار هذه المنطقة الصحراوية، تتوفر على موثقين وعدول يُسجلون أيضا كل حدث سياسي له علاقة بالقبائل أو بقطاع الطرق أو غيرهما، كما يسجلون أيضا كل حدث أو حالة اجتماعية من وفاة أو اختفاء أو نحوهما، وما يرافق ذلك من تحديد تركة الهالك وتقييمها إلى حين تسليمها للورثة بعد الرجوع، ونورد في هذا السياق وثيقة تاريخية من داخل دار آل بيروك بوادي نون ترسخ لتوثيق تركة قافلة المتوفى من طرف عدل أو موثق، إذ جاء في مضمونها ما نصه: "الحمد لله وحده (...) شهوده الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخه يعرفون أني الحاج محمد المحجوب الملقب السيد الأندلوسي أصلا المراكشي وطنا معرفة صحيحة تامة به بمعنى يشهدون انه عقد كراء في سلع نحو ثلاثة وعشرين سنة قبل المؤرخ به مع الحمالين من قبيلة تجكانت ليحملوا له سلعة مختلفة على الجمال بين كراء من مغاير قصر أروان وبعد حمل الحمالين للحمل وخروجهم من قصر أكلميم تخلف عنهم فجلس بعدهم بالقصر المذكور مرة نحو شهر أو أكثر ثم خرج تابعا لهم فلما بلغ بأرض في الصحراء يقال لها الابطانة قضى الله عليه بالممات وفي علمهم وتحقيقهم أن الشيخ عبد الله بن سالم التكني الكلميمي لم يتصرف في تلك السلعة بوجه ولا بحال ويعلمونه إذن بالتصرف فيها بغير يوم موت الحاج المذكور إلى الآن وحتى الآن كل ذلك بعلمهم وبه قيدت شهادتهم مسؤولة منهم

وعرفهم كافيا في حال صحته وقوع وجوازه في تاريخ عشرة في شهر رمضان سنة اثني وعشرين ومائتي وألف"[1].

وفي هذا السياق العدلي التوثيقي بمجال وادي نون، لم يغفل العدول والموثقون مسألة أخرى مهمة في ضمان استمرار الفعل التجاري، تتمثل في تسجيل معطيات الحالة الطبيعية للمسالك والطرق التجارية التي تسلكها القوافل، وأهم العراقيل التي تتخللها من قلة الماء وهول الزوابع الرملية وخطورتها ...، وذلك حتى يتعظ منها غيرهم في مستقبل تلك الفترة الهامة التي شهدت العديد من الأحداث العظام، سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي.

وأخيرا، يحرص العدول والموثقون أثناء الحديث من خلال كتاباتهم التي لم يصلنا منها إلا بعض الإشارات القليلة والضعيفة، سوى ما تخبرنا به الروايات الشفهية في المنطقة، على تناول موضوع حنكة التاجر وحنكة "الدليل" أو "المرشد" من عدمها، أو نقصانها في مجال معين يخص سير وتنظيم رحلة القافلة، قصد معالجة ذلك وأخذه بعين الاعتبار في السفر التجاري المقبل، الذي يمكن أن تحدث فيه أحداث أخرى غير مألوفة أو لم تكن في الحسبان.

ث. مخبـرو الطرق التجارية وكشافتها:

عمل تجار قوافل وادي نون منذ عقود من الزمن، بما فيهم تجار "آل بيروك" خلال القرن 19م، على إرسال العديد من "المخبرين" أو "الكشافة" سواء بعد انطلاق القافلة، للتأكد في كل وقت وحين من الظروف الأمنية للمحاور الطرقية والمراكز المرتبطة بها، بالإضافة إلى تقصي أخبار وأحوال الأسواق وأسعار السلع الرائجة بها ...، أو قبل الرحلة، لاستكشاف الأوضاع الطبيعية من وفرة الماء والآبـار وحالة المناخ السائد الذي يصعب التنبؤ به في غالب الأحوال، بالإضافة إلى تقصي الحقائق السياسية المتجلية في وجود الأمن المرتبط بطبيعة العلاقات الموجودة بين القبائل، أو الأمن المرتبط بقطاع الطرق الذين يصعب معرفة تحركهم في الزمان والمكان، كما يتأكد هؤلاء المخبرون أيضا من سريان مفعول العهد أو المعاهدات السابقة التي أبرمت مع القبائل التي ستمر من حدودها القافلة التجارية، أو أن الأمر سيحتاج التجديد وإعادة النظر في مضمونها، خاصة فيما يتعلق بواجبات المرور والشروط التجارية والأمنية اللازمة[2]، حتى يكون ذلك موصولا وفي علم

[1] الوثيقة رقم 02، دور العدول والموثقين في تحديد مصير تركة تاجر القافلة الهالك، إبان فترة حكم الشيخ عبد الله بن سالم من آل بيـروك بوادي نون، مؤرخة بتاريخ عشرة من شهر رمضان سنة اثني وعشرين ومائتي وألف، الموافق لسنة 1807 ميلادية (أنظر ملحق الوثائق التاريخية).

[2] تساءلنا أيضا كما في السابق من خلال هذا المتن عن السبب الذي جعل أغلب المصادر والمراجع التاريخية التي اطلعنا عليها، تغفل مسألة إعادة النظر في العهد أو المعاهدات والاتفاقيات القبلية من خلال القافلة التجارية وأهم العناصر المرتبطة بها، وقد استقينا هذه المعلومة الهامة أيضا من الرواية الشفهية للشيخ الحاج بـريد الليـل

جميع المجموعات المرافقة للقافلة، وذلك قبل انطلاقها من مركز أكلميم في اتجاه السودان الغربي أو غيره.

ج. الإبـل وتجـارة القـوافـل:

إن توفير الإبل وتربيتها، أو شرائها وتجهيزها للرحلة التجارية، قد كان من اختصاص التجار الصحراويين أو الأسر التي ينتمون إليها، إلا أن هذه المهمة قد تم اسنادها فيما بعد إلى أرباب ومربي الإبـل في وادي نون، في إطار تقسيم ممنهج للعمل بين المستقرين ونظرائهم الرحل، قصد تحقيق تكامل فُرض بسبب الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي كان المجال يمر منها من حين لآخر، ونتيجة لهذا التحول في المهام والمسؤوليات المرتبطة بالقافلة التجارية، فقد أصبح أرباب الإبـل يتكلفون ويعتنون بها ويحلبون حليبها، ويقدمونه لجميع مرافقي القافلة طيلة المسير أو الرحلة، كما يُـعهد إليهم كذلك بتجهيزها بعد كل استراحة أو توقف بمركز من المراكز التجارية للقيام بالبيع والشراء والتبادل.

إن عملية تجهيز الإبـل ليست بالعملية السهلة، بل يمكن وصفها بالعملية الشاقة حيث تتكرر أكثر من مرة في اليوم الواحد؛ ففي مرحلة أولى، يتم تركيب حاملات السلع على ظهور الجمال[1]،

البشير المشار إليه في المتن السالف. وتجدر الإشارة في هذا الاطار، إلى أن "بيروك بن عبد الله أوسالم"، قد وقع العديد من الاتفاقيات مع الرحل والأمراء وقواد القبائل التي تمر منها قافلة آل بيروك أو غيرها من قوافل تجار وادي نون؛ ومن بين هذه الاتفاقيات نذكر اتفاقيته مع أمير أدرار ومنطقة تكانت لحماية قافلة وتجارة آل بيروك مقابل بيصة (نوع من التوب أو القماش) عن كل حمل، كما اتفق أيضا مع أمير إمارة الترارزة لضمان التعامل التجاري مع مناطق نهر السينغال، بالإضافة إلى اتخاذه مجموعة من تجار قبيلة "عريب" الواقعة شرق وادي نون كوكلاء له، وذلك لضمان أمن وأرباح تجارته وتجارة منطقة تكنة في علاقة بمحور أكلميم تندوف. راجع بهذا الخصوص:

- Marty Paul**, Les tribus de la haute Mauritanie,** Publication du Comité de l'Afrique française, Paris, 1915, p. 74.
- Tamouh Zahra, **Le Maroc et le Soudan au XIXe siècle (1830-1894), contribution à une histoire inter-régionale de l'Afrique**, Centre de recherches africaines, Université de Panthéon-Sorbonne (Paris-I), 1982, p. 13 .
- Lydon Ghislaine, **On Trans-Saharan Trails, Op. cit.,** p.181.
- Barbier Maurice**, Voyages et explorations au sahara occidental au XIXe siècle**, Editions l'harmattan, 7, Rue de l'école-polytechnique 75005, Paris, 1985, p. 142 .

[1] تنقسم حوامل الإبل إلى نوعين؛ إما أن تكون مفردة أو مزدوجة، هذه الأخيرة تتميز بإيجابيات هامة أهمها إمكانية حمل الجمال لكم وافر من السلع والبضائع التجارية. راجع في هذا الشأن: افا عمر، **تحولات التجارة المغربية في القرن التاسع عشر، الجنوب المغربي 1830 – 1912**، دكتوراه دولة تحت إشراف الدكتور إبراهيم بوطالب، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الموسم الجامعي 2002م / 2003م، ص269 – 270 – 274.

وفي المرحلة الثانية والأخيرة يتم تحميلها أو تزويدها بالبضائع والمتاع والزاد وغيره، تمهيدا، لاستئناف الرحلة من جديد وتحقيق حركية تجارية سواء خلال الذهاب أو خلال العودة.

أما أرباب الإبل الذين لا يرافقون القافلة، فإنهم غالبا ما يتمركزون أو يتنقلون على حدود القبائل ممتهنين الرعي والإنتجاع، وفي الآن نفسه الحصول على واجبات المرور في إطار العلاقات والقوانين القبلية التي كانت سائدة خاصة في القرن التاسع عشر الميلادي.

وتجدر الإشارة إلى أنه رغم كون منطقة وادي نون أكبر خزان للإبل في المغرب، بفعل الظروف المناخية المساعدة على الرعي والانتجاع، إلا أن تجار هذا المنطقة الصحراوية كانوا يلجأون إلى كراء الجمال من لدن مجموعة من القبائل التي ستمر منها القافلة التجارية؛ حيث يُجبر التجار على استبدال وكراء مجموعة مهمة من الجمال في مرحلة معينة من مراحل اختراق القوافل للصحراء في اتجاه مختلف المراكز التجارية الافريقية، وذلك نتيجة للتعب أو المرض الذي كان يصيبها من حين لآخر، أو الحاجة للمزيد منها في حالة تضاعف كمية البضائع والسلع المستوردة في اتجاه أسواق ومواسم وادي نون.

وفي هذا الإطار، فقد كانت قبيلة تجاكانت من القبائل التي عملت على اقتناء الابل من أسواق ومواسم منطقة وادي نون، وذلك بهدف المتاجرة فيها، وفي الوقت نفسه كرائها لمختلف التجار العابرين بقوافلهم إلى مناطق السودان الغربي، حيث قام مجموعة من تجار هذه القبيلة الصحراوية بشراء الجمال من تجار ورحل منطقة تكنة، وخاصة من أسرة آل بيروك الوادنونية، وذلك كما يظهر من معطيات إحدى الوثائق التاريخية[1]، وأرقام السجلان التجاريان للشيخ محمد بن بيروك بن عبد الله أوسالم إبان القرن التاسع عشر الميلادي[2].

الخاتمة:

لقد اعتبرت وادي نون من المجالات الصحراوية التي اضطلعت فيها القافلة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، بدور مهم في تنشيط البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وذلك في علاقتها مع عدة مناطق أو مراكز هامة، سواء الواقعة شمالا في اتجاه الصويرة أو مراكش، أو الواقعة جنوبا في اتجاه السودان الغربي، حيث كانت بمثابة الوسيلة التي عملت من خلالها الأسر

[1] الوثيقة رقم 03، اشهاد العدلين محمد بن أصغر بن عثمان بن صالح، وأحمد العالم إدبوبكر بن الأمين الجكاني، حول موضوع المعاملات التجارية لآل بيروك بوادي نون، بتاريخ شهر رمضان عام 1229 هجرية، الموافق لسنة 1814 ميلادية (أنظر ملحق الوثائق التاريخية).

[2] السجلين التجاريين للشيخ محمد بن بيروك بن عبد الله أوسالم، إبان القرن التاسع عشر الميلادي (نسخة من السجلان بحوزتنا بمدينة أكليم جنوب المغرب).

التجارية بالمنطقة بتصدير انتاجها المحلي بوادي نون أو القادم من المراكز الافريقية نحو المرسى السلطاني (ميناء الصويرة) الذي حظي باهتمام المخزن والأجانب، الذين كانوا بدورهم يعملون بكل ما أوتوا من قوة اقتصادية وسياسية على تصدير فائضهم من المصنوعات الأوروبية نحو المغرب، وخاصة نحو الجنوب الذي كان في أمس الحاجة إلى المواد المصنعة، التي كانت قافلة وادي نون تستوردها إلى أكلميم وإلى باقي المراكز الإفريقية الأخرى.

وفي هذا السياق الذي يبين أهمية القافلة اتجاه المجالات الصحراوية بصفة عامة، فقد استفادت منها فئتا التجار والرحل خلال هذه الفترة التاريخية من القرن التاسع عشر الميلادي؛ إذ عملت الفئة الأولى كفئة مستقرة على تنظيم الرحلة والإشراف على مختلف عملياتها التجارية، بالإضافة إلى العمل على شراء منتوجات الرحل (الإنتاج الحيواني)، وفي الوقت نفسه بيعهم ما يحتاجون إليه من بضائع ومواد أولية قد لا يتوفرون عليها، خاصة المصنوعات الأوربية القادمة من الصويرة، وفي المقابل يعمل هؤلاء الرحل على توفير وتأمين وبيع وسائل النقل المتمثلة بالخصوص في إبل وجمال القافلة، وضمان مرورها من الطرق والمسالك التي يعرفونها معرفة تامة ويتحكمون فيها، مما يعني غياب التنافر بين هاتين الفئتين (التجار والرحل) اللتين تتقاسمان المصير الاقتصادي نفسه، أي أن التجارة القوافلية أسهمت في تحقيق تعاون وتداخل مشترك بين مكونين يختلفان من حيث طبيعة العمل والسلوك اليومي، ويلتقيان في المصلحة المادية نفسها، وذلك قصد تأكيد الوجود الجمعي والوجود المجالي وترسيخهما بشتى الوسائل بما فيها التجارية.

يستنتج أيضا من مختلف المعطيات السابقة، أن قافلة وادي نون، كانت الوسيلة الوحيدة التي كانت تضمن تنشيط التجارة بالمنطقة، وذلك من خلال مختلف علاقاتها مع مجمل قبائل المحيط القبلي الإفريقي، وأيضا من خلال علاقتها بالأوروبيين عبر مرسى الصويرة، الذي حتم على المغرب مسايرة النظام الاقتصادي الرأسمالي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، بالاستعانة بعدة وسائل مهمة من بينها القوافل التي لولاها لما وجدت بضائع السفن الأوربية منفذا إلى الأسواق والمواسم الداخلية، قصد تصدير الفائض من المنتوجات وجلب الأخرى التي تحتاجها الأسواق الأجنبية، وذلك إلى حدود النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، الذي عرف تسرب الاستعمار الذي عمل على تقويض البنيات القديمة واستبدالها ببنيات جديدة استغنت تدريجيا عن القافلة، وعن عمل أهم الأسر التجارية التي كانت تقودها نحو مختلف الأسواق والمواسم والمراكز التجارية الهامة بإفريقيا.

التوصيات:

أفضت دراسة إشكالية القوافل التجارية الإفريقية خلال القرن التاسع عشر الميلادي: قوافل منطقة وادي نون نموذجا، إلى تناول توصيتين إثنتين:

- ✓ العمل على الاهتمام بأحداث تاريخ القرن التاسع عشر الميلادي، خاصة المرتبطة بالظروف التي أسهمت في ترسيخ وبناء علاقات بين مجمل مناطق ومراكز إفريقيا، كما هو الشأن بظروف عمل ونجاح القافلة الوادنونية؛ حيث يجب استثمار وتوظيف علم التاريخ والعلوم المساعدة له، في إعادة كتابة تاريخ العلاقة بين المغرب وإفريقيا، وتبيان طبيعة وماهية البنيات التي أُسست خلال هذه الفترة، بعيدا عن النقص أو التاويل الخاطئ أو المستهدف، الذي شاب كتابات من سبقنا إلى دراسة منطقة وادي نون وإفريقيا عامة، خاصة من طرف الأجانب من ضباط ورحالة ومستكشفين.
- ✓ توصي هذه الدراسة أيضا، إلى وجوب إعادة الاعتبار للطرق التجارية القوافلية، خاصة طريق المحور الغربي، الذي كانت له أهمية تجارية وثقافية واجتماعية ...، وذلك على شاكلة طريق الحرير الممتدة من المشرق إلى المغرب، بهدف إحياء قيم مؤسسة القافلة، وإسهاماتها في تحقيق التنمية بمنطقة وادي نون وامتدادها الإفريقي.

الملحق الوثائقي

الوثيقة رقم 01

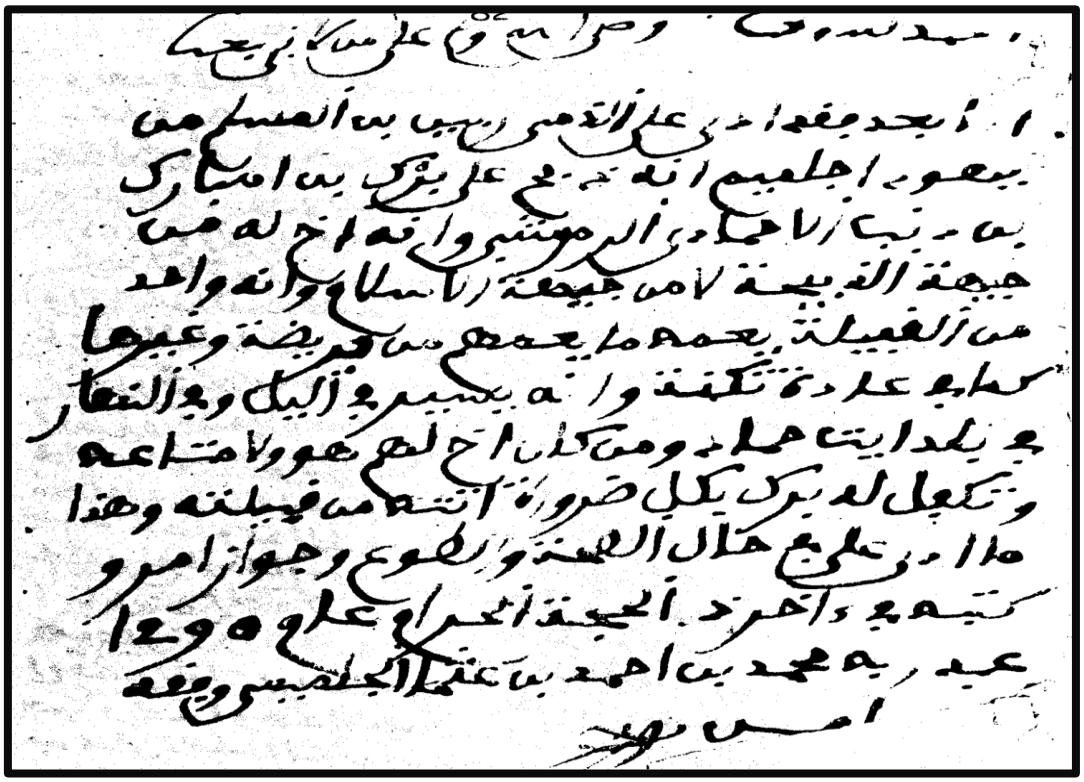

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده.

أما بعد فقد أدي على الذمي ربين بن مسلم من يهود أكليم أنه ذبح على برك بن امبارك بن دنبا الأحمادي الرموشي وأنه أخ له من جهة الذبيحة لا من جهة الإسلام وأنه واحد من القبيلة يعمه ما يعمهم من فريضة وغيرها كما في عادة تكنة ، وأنه يسير في الليل وفي النهار في بلد أيت حماد ومن كان أخ لهم هو ولا متاعه وتكفل له برك بكل ضرورة أتته من قبيلته وهذا ما أدي علي في حال الصحة والطوع وجواز أمر وكتبه في آخر ذي الحجة الحرام عام 1290 عبد ربه محمد بن أحمد بن عثمان الكلميمي وفقه الله آمين.

E-ISSN: 2789-3359 || P-ISSN: 2789-7834 || AIF: 0.5 GIF: 1.5255

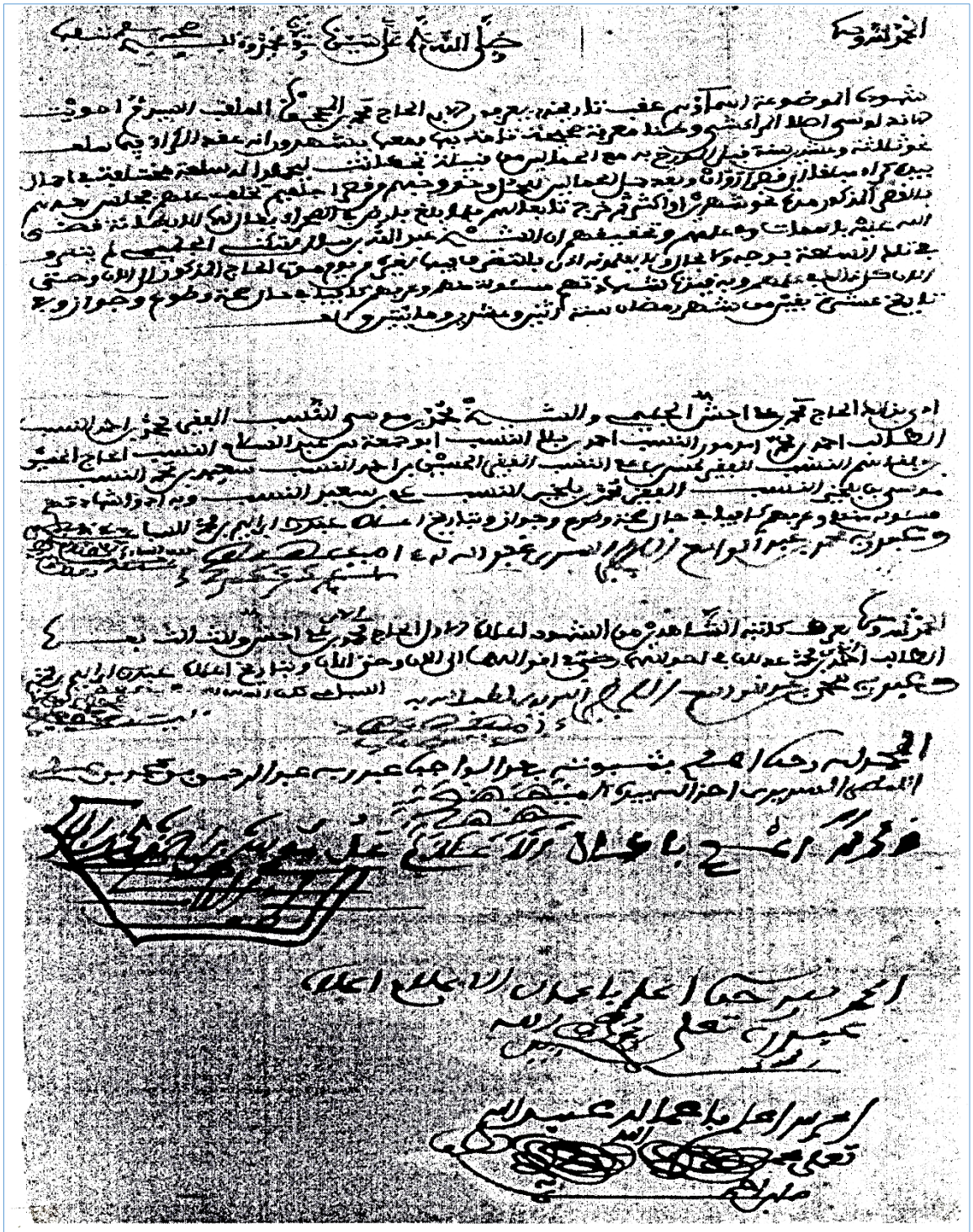

الوثيقة رقم05: دور العدول والموثقين في تحديد مصير تركة تاجر القافلة الهالك، إبان فترة حكم الشيخ عبد الله بن سالم من آل بيروك، مؤرخة بتاريخ عشرة من شهر رمضان سنة اثني وعشرين ومائتي وألف.

الوثيقة رقم 02

"الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما شهوده الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخيه يعرفون الأب الحاج محمد المحجوب الملقب السيد (...) أحويت الأندلوسي أصلا المراكشي وطنا معرفة صحيحة تامة به فمعها يشهدون انه عقد الكراء في سلفق نحو ثلاثة وعشرين سنة قبل المؤرخ به مع الحمالين من قبيلة تجكانت ليحملوا له سلعة مختلفة في أحمال بيده كراء مبلغا إلى قصر أروان وبعد حمل الحمالين للمحمل وخروجهم من قصر أجلميم تخلف عنهم فجلس بعدهم بالقصر المذكور مدة نحو شهرين أو أكثر تم خرج تابعا لهم فلما بلغ بأرض في الصحراء يقال لها الابطانة قضى الله عليه بالممات وفي علمهم وتحقيقهم أن الشيخ عبد الله بن سالم التكني الجلميمي لم يتصرف في تلك السلعة بوجه ولا بحال ويعلمونه إذن بالتصرف فيها لغير من يوم موت الحاج المذكور إلى الآن وحتى الآن كل ذلك علمهم وبه قيدت شهادتهم مسئولة منهم وعرفهم كافيا في حال صحته وطوع وجوازه وفي تاريخ عشرة بقين مي شهر رمضان سنة اثنين وعشرين ومائتي وألف"

أدى بذلك الحاج محمد بن علي أحشر الجلميمي والشيخ محمد بن موسى النسب الفقير محمد بن أحمد النسب الطالب أحمد بن محمد أمرمور النسب أحمد بن بلا النسب أبو جمعة بن عبد السلام النسب الحاج الحسين بن بلقاسم النسب الفقير لحسن مع النسب الفقير الحسين بن أحمد النسب سعيد بن محمد النسب موسى بن بلخير النسب الفقير محمد بن بلخير النسب علي بن سعيد النسب وبه أدو شهادتهم مسئولة منهم وعرفهم كافيا في حال صحة وطوع وجواز وبتاريخ أعلاه عبد ربه إبراهيم بن محمد السباعي وعبد ربه محمد بن عبد الواسع اللمطي السريري غفر الله له آمين.

الحمد لله وحده يعرف كاتبه الشاهدين من الشهود أعلاه الأول الحاج محمد بن علي أحشر والثالث بعده الطالب أحمد بن محمد عدله في أحوالهما رضي في أقوالهما إلى الآن وحتى الآن وبتاريخ أعلاه عبد ربه إبراهيم رحمته وعبد ربه محمد بن عبد الواسع اللمطي أسريري لطف الله به آمين.

الحمد لله وحده أعلم بثبوته بعد الواجب عبد ربه عبد الرحمان بن محمد بن علي اللمطي السريري أخذ الله بيده آمين.

الحمد لله وحده أعلم بأعمال الأعلام أعلاه علي موسى بن (...).

الحمد لله وحده أعلم بأعمال الأعلام أعلاه.

عبد ربه تعلى (...) الله.

أجلميم.

الحمد لله أعلم بأعماله عبد الله

تعلى محمد (...)".

الوثيقة رقم 03

إشهاد العدلين أصغر بن عثمان بن صالح وأحمد العالم إدبوبكر ابن الأمين الجكاني، حول موضوع المعاملات التجارية لآل بيروك بوادي نون، بتاريخ شهر رمضان عام 1229 هجرية، الموافق لسنة 1814 ميلادية.

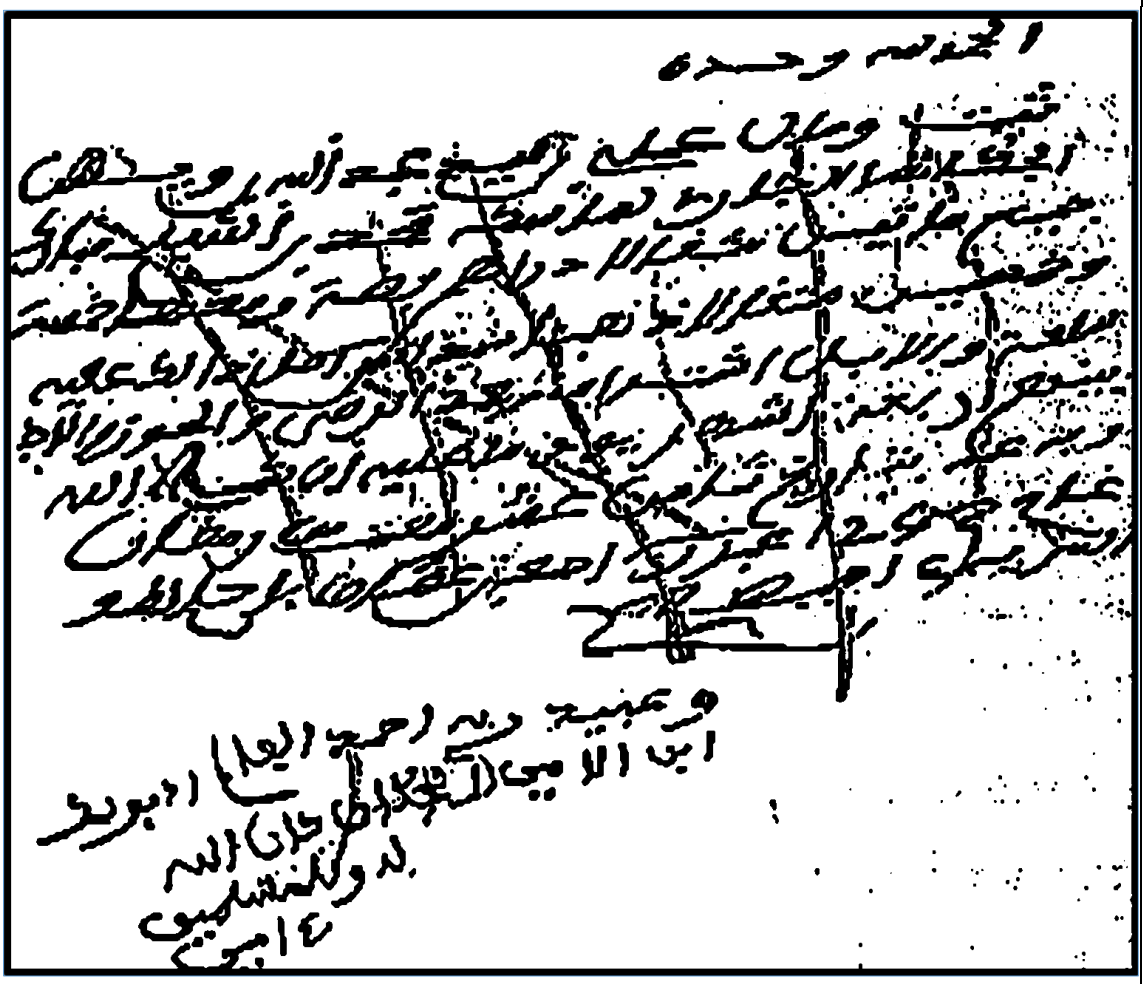

الحمد لله وحده

ثبت ومال على (...) الجكاني (...) لماسكه محمد بن الشيخ مبارك جميع ماتين مثقالا درهم فضة ومعها خمسة وخمسين مثقالا ذهبا سداس أصل ذلك عليه سلعة والإبل اشترا منه بعد الرضى والحوز والأجل بينهم أربعة أشهر يؤد ما عليه ان شاء الله وبه علم بتاريخ ثامن عشر (...) من رمضان عام 1229 عبد ربه أصغر بن عثمان بن صلح لطف الله به آمين وعبد ربه وأحمد العالم إدبوبكر ابن الأمين الجكاني كان الله له وللمسلمين ءامين.

قائمة المصادر والمراجع:

أ) الرصيد الوثائقي:

- وثائق محلية خاصة بمنطقة وادي نون في الجنوب المغربي (أنظر الملحق الوثائقي).
- السجلين التجاريين للشيخ محمد بن بيروك بن عبد الله أوسالم، إبان القرن التاسع عشر الميلادي (نسخة من السجلان بحوزتنا بمدينة أكليم جنوب المغرب).

ب) الدراسات والكتابات التاريخية:

باللغة العربية:

- افا (عمر)، **تحولات التجارة المغربية في القرن التاسع عشر، الجنوب المغربي 1830 – 1912**، دكتوراه دولة تحت إشراف الدكتور إبراهيم بوطالب، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، موسم 2002م.
- ماتيوس (فيليكس)، **ساحل إفريقيا الغربي، سوس، وادي نون، الصحراء، تقرير ممثل الولايات المتحدة الأمريكية بالمملكة المغربية (1879م - 1881م)**، ترجمة عبد الهادي التازي، مجلة البحث العلمي، عدد 31، سنة 1980م.
- الناجي (محمد)، **التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب (ما بين القرن 16 عشر والقرن 19 عشر)**، ترجمة عبد الرحيم حزل، الطبعة الأولى 2004 م، الناشر: جدور للنشر، الرباط.
- الولاتي (محمد يحيى بن محمد المختار)، **الرحلة الحجازية**، تخريج وتعليق الدكتور محمد حجي، نشر دار الغرب الاسلامي، تونس، الطبعة الثانية، 2009م.

باللغة الأجنبية:

- Barbier (Maurice), **Voyages et explorations au sahara occidental au XIXe siècle,** Editions l'harmattan, 7, Rue de l'école-polytechnique 75005, Paris, 1985.
- Ennaji (Mohamed) Et Pascon (Paul), **Le Makhzen Et Le Sous AL-Aqsa, La Correspondance Politique De La Maison D'Iligh (1821 – 1894)** , Paris , Casablanca, 1988, Document N° 05.

- Faidherbe (Colonel), **Renseignements géographiques sur la partie du sahara comprise entre L'Oued Noun et le Soudan**, Revue Maritime et coloniale, T : 01, Janvier et Février 1861.
- Lessard (J.M), **SIJILMASSA , La Ville Et Ses Relations Commerciales Au Xieme Siécle D'après Et Bakri,** In Hesperis Tamuda, VOL. X - Fasc. 1.2 , 1969.
- Lydon (Ghislaine), **On Trans-Saharan Trails: Islamic Law, Trade Networks, and Cross-Cultural Exchange in Nineteenth-Century Western Africa**, Cambridge University Press, 2009.
- Marty (Paul), **Les tribus de la haute Mauritanie**, Publication du Comité de l'Afrique française , Paris, 1915.
- Monteil (Vincent) , **Notes Sur Les Tekna**, Editions Larose, 11 Rue Victore _Cousin 11 paris (Ve) ,1948.
- Tamouh (Zahra), **Le Maroc et le Soudan au XIXe siècle (1830-1894), contribution à une histoire inter-régionale de l'Afrique,** Centre de recherches africaines, Université de Panthéon-Sorbonne (Paris-I), 1982.

ج) الرواية الشفوية:

- رواية الشيخ الحاج بريد الليل البشير:
- من كبار الأعيان بمنطقة أكلميم ووادي نون عامة (90 عاما).
- من أبرز شيوخ قبيلة أزوافيط بوادي نون.
- قائد بجيش تحرير الجنوب المغربي (قائد المئة).
- امتهن التجارة بامتياز، حيث زار وتاجر في كل من باماكو وتمبوكتو والنيجر والجزائر ... .
- رواية القائد علي سالم ولد بيروك، من عائلة "آل بيروك" التاريخية بمنطقة وادي نون (75 عاما).